وداعاً للمعارضة «المعتدلة»... وداعاً لـ «الحل السياسي»
الكاتب : عبد الوهاب بدرخان
التاريخ : 10 أكتوبر 2015 م
المشاهدات : 4060

كل ردود الفعل والتعليقات على التدخل الروسي وعملياته الجوية جاء في سياق «قبول مبدئي» بهذا التدخل ومجرد اعتراض جدلي على الأهداف التي ضربها، فهي أكدت مجيئه أولاً لتعويم نظام بشار الأسد ولذلك تركّزت الغارات على مواقع المعارضة التي أنزلت هزائم بهذا النظام، وثانياً لمنافسة الولايات المتحدة وتحالفها الدولي في الحرب على تنظيم «داعش» ما يفسّر إنشاء روسيا «الحلف الرباعي» الذي يضمّها مع إيران والعراق ونظام دمشق.

وحين راقب فلاديمير بوتين مواقف باراك أوباما بعدما عاين عن كثب مواقف الأوروبيين، لا بد أنه لاحظ رسوخها في الركون للأمر الواقع الذي فرضه، فخصومه لن يتدخلوا ضدّه في سورية.

لكنه لم يقرر الذهاب إلى سورية من أجل الأسد، ولا من أجل ايران، بل من أجل أوكرانيا. كان جانب مهم من لقاء نيويورك مع أوباما خُصّص لأوكرانيا ولم يسمع فيه بوتين ما يتمنّاه. لذلك قرّر خوض حربه في سورية... على طريقة الدبّ الروسي.

مع الطلعات الجويّة الأولى، وتكرارها، أكد الرئيس الروسي لكل من تحادث معه في الشهور الأخيرة أنه بلع تعهّداته التي تركّزت برمّتها على إنهاء الأزمة السورية بـ «حل سياسي» تقوده روسيا وتكون ضماناً للأسد ولحسن سلوكه في فترة محدودة من المرحلة الانتقالية، وبالتزامن يجري تفعيل الحرب ضد «داعش».

وعلى رغم أن هذا السيناريو مثالي وأجمل من أن يصدّق، إلا أن الحدّ من الإرهاب، ومن موجات المهاجرين بالنسبة إلى أوروبا، شجّع مختلف الأطراف على استشفاف بعض المعقولية فيه، كما شكّل هدفين يستحقان في نظرها «الثمن السياسي». لذا راحت العواصم الغربية تتحاذق بالصيغ والألفاظ لتغيير مواقفها السابقة وإعلان استعدادها لقبول استمرار الأسد في موقعه. مع ذلك كان الجميع متيقّناً بأن الخيار الروسي المطروح يحتاج إلى تفاوض واتفاق دوليين مسبقين، وبأن

بوتين لن يحسم خياراته إلا بعد لقائه مع أوباما، إلا أن انكشاف ضخامة الإعداد للتدخل العسكري والإعلان عن «الحلف الرباعي وإقامة مركز استخباري تابع له في بغداد استبقت ذلك اللقاء، وأثارت كمّاً من التساؤلات عن نيات روسيا وأهدافها وخططها. بل إن بوتين استبق خطابه من على منبر الأمم المتحدة مكرّراً أن محاربة «داعش» تمر بالضرورة عبر التنسيق من الأسد ونظامه.

طالما أن الأميركيين والأوروبيين يواصلون فرض عقوبات اقتصادية على روسيا وليسوا مستعدّين بعد للتفاوض على أوكرانيا والأمن الاوروبي، وطالما أن واشنطن تبدي ميلاً إلى البحث مع إيران في تسوية سورية، لذلك لم يبق أمام بوتين سوى انتزاع «الورقة السورية» لتوسيع نطاق التفاوض والحؤول دون أي تخريب على المقايضات التي يسعى إليها.

وهكذا تبيّن لواشنطن أن «الخطة ب» لما بعد الاتفاق النووي لم تكن إيرانية فحسب بل إيرانية – روسية، أقله في ما يتعلّق بسورية. كانت إيران حاولت الحصول على دور مشترك مع الولايات المتحدة في محاربة الإرهاب في العراق، وكذلك في سورية، مقترحة اعتماداً على الميليشيات لم يلقَ قبولاً لدى الأميركيين، أما الروس فلا يمانعونه ولا يرون ضرورةً للنظر في الاعتبارات التي دعت أميركا وحلفاءها إلى استبعاد ميليشيات شيعية وقوات أسدية عن القتال في مناطق سنّية حتى لو كان الهدف/ أو بالأخص لأن الهدف دحر تنظيم «داعش» واقتلاعه من بيئة سنّية يضطهدها ويفتك بأبنائها.

ذاك أن سجل السوابق والارتكابات لـ «الجيش الأسدي» في سورية وميليشيات إيران العراقية يجعل التعاون معهما بمثابة «تشريع» دولي للاستباحة والمجازر والانتهاكات ضد السكان.

يوم الأربعاء الـ 30 من أيلول (سبتمبر) شنّت مقاتلات حربية روسية هجماتها الأولى على مناطق المعارضة السورية التي تقاتل ضد النظام، وقال الإعلام الروسي الذي استعاد فوراً «بروباغنديته» السوفياتية أن الضربات «دمّرت مواقع لتنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي»، ولا يزال يكرّر هذه الصيغة.

لا مجال لأن يعترف بسقوط بضع عشرات من المدنيين ولا بأنه لم يُصَب أي موقع «داعشي» لأن –ببساطة– لا وجود للتنظيم في تلك المناطق.

تعرّف المواطنون السوريون لتوّهم إلى قصف تنافس ضراوته براميل النظام والصواريخ البالستية والمقذوفات الكيماوية التي ظنوا أنها ذروة ما يمكن أن يتعرّضوا له. كادوا يترحّمون على وحشية النظام اذ جاءتهم وحشية أشدّ... وفي اليوم نفسه أعلن «التحالف الدولي» بقيادة الولايات المتحدة أن طائراته قامت بغارات عدّة على مواقع محدّدة لـ «داعش»... ثم أعلن عن وصول مئات المقاتلين من «لواء الفاطميين» التابع لـ «الحرس الثوري» الايراني للمشاركة في هجوم بري ضد مناطق المعارضة.

في ذلك الوقت كان الأسد يتفرّج: أميركا تضرب «داعش» وروسيا تضرب المعارضة وهو يتفرّج، فالدولتان الكُبريان جاءتا إلى مصيدة الإرهاب التي أعدّها والإيرانيين لهما، ولا يهمه مَن يُقتل وما يُدمّر في سورية، المهم أن يبقى ونظامه في السلطة، ولو فوق ركام من الخراب.

ثمة تغيير سياسي وعسكري في المعادلة جعل النظام يبدي علامات انفراج واستقواء، فإعلامه يوحي بأنه «يدير» المعركة، ووزير خارجيته يقول للمعارضة من نيويورك أنها لن تحقق على طاولة المفاوضات «ما فشلت في تحقيقه على الأرض»، مقتبساً عبارة «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» الموجّهة سابقاً إلى إسرائيل. ثم ها هو الأسد نفسه يخيّر العالم بين «انتصار الحلف الرباعي» و «إلا فنحن أمام تدمير المنطقة بأكملها، وليس دولة أو دولتين».

ليس مؤكّداً أن الأسد سيبقى طويلاً ليتمتّع بما يتوقّعه من «انتصار» أو «دمار» لكنه غير مخطئ في أن المعطى الروسي غيّر المسار لمصلحته وأجّج الصراع على النحو الذي يأمله، وإنْ كان حديثه عن النتائج مبكراً وغبياً.

لا شك في أن الرهان الأكبر للأسد على أن بوتين يشبهه في الوحشية بل يتفوّق عليه، بدليل أنه باشر حملته السورية بمنطق إبادة لا بمنطق حرب، فلا تمييز بين مدني وغير مدني كما يفعل «التحالف الدولي» (الاميركي). فما المتوقع من نهج كهذا؟

لم يؤخذ الأميركيون وحلفاؤهم على حين غَرّة، فكل شيء كان أمامهم لكنهم بدوا كمن يُخدعون بإرادتهم، فهم كانوا واضحين منذ البداية في أنهم لن يتدخلوا عسكرياً في سورية، وكانوا واضحين أخيراً في تنازلهم لروسيا عن ورقة «تنحّي الاسد»، ولم يكن ذلك ليعني بالنسبة إلى روسيا سوى أنهم مشوّشون يفتقدون أي استراتيجية وأي خيارات – يريدون رحيل الأسد ولا يريدون إسقاطه عسكرياً، ويقولون أنهم مع الشعب السوري ولا يثقون بالمعارضة – لذا كانت مواقفهم أشبه بدعوة إلى بوتين للتدخل، ففعل. لكن، إذا لم يوضح سريعاً توجهاته نحو حل سياسي، فإن التطورات العسكرية ستقوّض هذا الحل وستحمل خصومه الدوليين والإقليميين على إعادة ترتيب أوراقهم وتفعيل دعمهم للمعارضة ومساعدتها على الصمود. في المقابل، إذا أصرّ على إخضاع الأزمة السورية للمقايضات الدولية واللعب على نغمة التقسيم الإيرانية – الأسدية فإنه سيستفز كل القوى الإقليمية وعليه أن يقرر إذا كان الأسد يستحق مثل هذه المجازفة ومن أجل ماذا.

والأهم أخيراً، إذا واظب على أسلوبه الأهوج الحالي فإن سحقه للمعارضة قد يرضيه بنتائج سريعة ستبقى غير نهائية، بل سيثبت دفعه الوضع السوري نحو «الأفغنة» وحرب طويلة الأمد لن تسهّل القضاء على «داعش» – هدفه المعلن، بل ستشعل عندئذ الحروب الدينية والمذهبية التي ظلّت تحت الاحتواء خلال الوجود السوفياتي في أفغانستان، إلا أنها ستصبح علنية ومكشوفة مع الوجود الروسي في سورية.

الحياة اللندنية

المصادر: